السَّلالم الحجاجيَّة في مؤلَّف جمع الجواهر في الملح والنَّوادر للحصري القيرواني

الباحثة: غادة محسن العوفي
القسم: اللغة العربية وآدابها

المستخلص:

تتبلَّور أهميَّة الدِّراسة حول قيمة الدِّراسات النَّقديَّة البلاغيَّة، وما امتازت به من الوجهة المفهوميَّة، وارتباطها بتناول بلاغة الحِجاج، أيّ بثنائيَّة الحجة والأسلوب، وعلاقتهما بالخطاب، باعتبار أنَّ غاية كلّ حجاج محاولة الإقناع والتَّأثير. لذا تهدف الدِّراسة إلى معرفة السَّلالم الحِجاجيَّة، وكيفيَّة توظيفها في كتاب (جَمْعُ الجَواهِرِ في المُلَحِ والنَّوادِرِ) للحُصْري القيرواني، مع توضيح قوانينها المتباينة. وتقتضي طبيعة الدِّراسة الاعتماد على المنهج الوصفي التَّحليلي الَّذي يعتمد على التَّداوليَّة بوصفه أداة إجرائيَّة تظهر وجود السَّلالم الحِجاجيَّة في كتاب (جَمْعُ الجَواهِرِ في المُلَحِ والنَّوادِرِ) للحُصْري القيرواني. وقد خرجت الدِّراسة بمجموعة من النَّتائج أجملها فيما يأتي: غزارة النَّادرة الحصريَّة بأنواع متباينة من السَّلالم الحِجاجيَّة؛ فقد اعتمد الحصْري على قوانين هذه السَّلالم؛ لاستمالة النُّفوس، وكسب العقول من خلال اهتمامه بالوسائل الإقناعيَّة الَّتي تفرضها طبيعة التَّواصل بينه وبين المتلقِّي؛ لأنَّ حججه لديها القدرة على إقناع المتلقي والتَّأثير فيه، فقد امتازت بالواقعيَّة، كما أنَّها أكسبت النَّادرة بُعدًا دلاليًّا؛ ليقنع متلقي النَّادرة، ويحمله على الإذعان والتَّسليم بالحجَّة المطروحة، وعدم الطَّعن والشَّك بها.

كلمات مفتاحيَّة: السَّلالم- الحِجَاجيَّة- جَمْعُ الجَواهِرِ- المُلَحِ- النَّوادِرِ- الحُصْري- القيرواني.

المقدمة

تكمن قوَّة الحِجاج في تسلسل الحجج وترتيبها في النَّصِّ الخطابي وفق ما يقتضيه الاتِّصال بين العناصر الخطابيَّة، وهذا يُعرف عند ديكرو بالسُّلَّم الحِجاجي، الَّذي يهتم بدراسة ترتيب العلاقات بين الحجج داخل الخطاب مع بيان درجة كلِّ كلام وأهميته، إذ أنَّ الباث (المتكلِّم) يستعين بتراكيب لغويَّة متباينة مرتبة ترتيبًا تصاعديًّا يجعل القول يتسلسل في دلالته منطلقًا انطلاقًا تدريجيًّا من أضعف حجَّة إلى أقوى حجَّة،[١] متخذًا منها أساسًا للمحاجَّة حتَّى يصل إلى التَّأثير والإقناع في المتلقِّي. ويمثله النَّموذج الآتي:

(١) السُّلَّم الحِجاجي يشبه نظريَّة (التَّدرج الهرمي للحاجات) لأبرهام ماسلو (Abraham Maslow) للاستزادة يُنظر: الكناني، ممدوح، **الأسس النَّفسيَّة للابتكار**، ط١ (الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتَّوزيع، ١٩٩٠م).

النَّتيجة (R)	↑
الحجَّة القويَّة (P1)	
الحجَّة الضَّعيفة (P)	

شكل (٣-١) نموذج السَّلالم الحِجاجيَّة

وهو علاقة ترتيبيَّة للحجج، يمكن أن نرمز لها كالآتي: (ب)، و(ج)، و(د): حجج وأدلة تخدم النَّتيجة (ن).

ن	↑
د	
ج	
ب	

شكل (٣-٢) رموز السَّلالم الحِجاجيَّة

فالسُّلَّم الحِجاجي عند ديكرو «فئة حِجاجيَّة موجهة»،[٢] وهو عبارة عن «مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوَّدة بعلاقة ترتيبيَّة»،[٣] وله شرطان أساسيان، هما:

- كلّ قول يقع في مرتبة ما من السُّلَّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطَّرف الأعلى جميع الأقوال الَّتي دونه.
- كلّ قول كان في السُّلَّم دليلًا على مدلول معيَّن، وكان ما يعلوه مرتبة دليلًا أقوى عليه.[٤]

ويتسم السُّلَّم الحِجاجي بسمتين رئيستين، هما:

- الحجَّة الَّتي ترد في درجة معينة من السُّلَّم تكون الحجج الَّتي تعلوها أقوى منها.
- إذا كانت الحجَّة (ب) تؤدِّي إلى النَّتيجة (ن) فهذا يستلزم أن (ج) أو (د) الَّذي درجة يؤدِّي إليها، والعكس غير صحيح.[٥]

٢-١ قوانين السَّلالم الحجاجيَّة.

وهذا السُّلَّم الحِجاجي يقوم على مبدأ التَّدرج التَّصاعدي للحجج من الأضعف إلى الأقوى، لذا لا بُدَّ أن يخضع لقوانين تنظمه، وتتمثَّل في الآتي:

(٢) العزاوي، أبو بكر، **اللُّغة والحِجاج**، ٢١.
(٣) عبدالرَّحمن، طه، **اللِّسان والميزان أو التَّكوثر العقلي**، ٢٤.
(٤) عبدالرَّحمن، ٢٧٧.
(٥) العزاوي، ٢٢.

٢-١-١ قانون النَّفي.

إذا كان القول (أ) مستخدمًا من قبل الباث (المتكلِّم)؛ ليخدم نتيجة، فإنَّ القول في المجموعة المضادَّة (لا-أ) يكون حجَّة لصالح النَّتيجة المضادَّة،[٦] مثل:
(أ) الطَّالب مجتهد، (ن) نجح في الامتحان.
(لا-أ) الطَّالب غير مجتهد، (لا-ن) لم ينجح في الامتحان.

وقد برز هذا القانون في مؤلَّف (جَمْعُ الجَواهِرِ في المُلَحِ والنَّوادِرِ) من خلال النَّماذج الآتية:

النَّموذج الأوَّل:

«خرج سالم بن عبدالله متنزهًا إلى ناحية من نواحي المدينة ومعه أهله وحرمه، فبلغ أشعب الخبر، فوافاهم يريد التَّطفل؛ فصادف الباب مغلقًا، فتسور الحائط عليهم. فقال له سالم: ويلك يا أشعب! معي بناتي وحرمي! فقال له أشعب: لقد علمت ما لنا في بناتك من حقّ، وإنَّك لتعلم ما نريد. فضحك منه وأمر له بطعام أكله وحمل منه إلى منزله».[٧]

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

إكرام سالم بن عبدالله لأشعب وإعطاؤه الطَّعام لمنزله	ن	↑	عدم إكرام سالم بن عبدالله لأشعب ورفضه إعطاءه الطَّعام لمنزله
غضب سالم بن عبدالله لفعل أشعب	ح٤		لم يغضب سالم بن عبدالله لفعل أشعب
محاولة أشعب فتح الأبواب المغلقة وتسور الحائط	ح٣		محاولة أشعب فتح الأبواب المغلقة وتسور الحائط
تطفل أشعب عليهم	ح٢		تطفل أشعب عليهم
خروج سالم بن عبدالله للتنزه برفقة أهله	ح١		خروج سالم بن عبدالله للتنزه برفقة أهله
السُّلَّم المثبت			**السُّلَّم المنفي**

شكل (٣-٣) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الأوَّل قانون النَّفي

(٦) عبدالرَّحمن، ٢٢٢.
(٧) الحُصْري، أبو إسحاق، **جمع الجواهر في المُلَح والنَّوادر**، ٧٧.

من الشَّكل الحِجاجي السَّابق يتضح لنا أنَّ السُّلَّم المثبت للحجج المثبتة هو تبديل سلَّم منفي، ينتج عنه تبديل الحجج المنفيَّة إلى حجج مثبتة تشكِّل نتيجة مضادة، فخروج سالم بن عبدالله للتنزه برفقة أهله، وتطفل أشعب عليهم جعله يكرمه، ويقدِّم له الطَّعام ويحمله إلى منزله؛ لأنَّه عندما قال: «ما لنا في بناتك من حقّ» فهو أظهر حسن نيته، ورغبته في تناول الطَّعام لا التَّعريض لأهل سالم بن عبدالله.

النَّموذج الثَّاني:

«قال أبو العبر: كنَّا نختلف ونحن أحداث إلى رجل يعلمنا الهزل، فكان يقول: أوَّل ما تريدون قلب الأشياء، فكنَّا نقول إذا أصبح: كيف أمسيت؟ وإذا أمسى: كيف أصبحت؟ وإذا قال: تعال نتأخر إلى خلف؛ وكانت له أرزاق تعمل كتابتها في كلِّ سنة، فعمل مرة وأنَّ معه الكتاب، فلما فرغ من التَّوقيع وبقي الختم. قال: أتربه وجئني به، فمضيت فصببت عليه الماء فبطل، فقال: ويحك! ما صنعت؟ قلت: ما نحن فيه طول النَّهار من قلب الأشياء! قال: والله لا تصحبني بعد اليوم فأنت أستاذ الأستاذين».(٨)

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

عدم مصاحبة الرَّجل لأبي العبر؛ لأنَّه فاقه في الهزل	ن	↑	مصاحبة الرَّجل لأبي العبر والاستمرار في تعليمه الهزل
غضب الرَّجل لفعل أبي العبر	ح٤		لا أساس لغضب الرَّجل
صبّ أبو العبر الماء على الختم وفسد	ح٣		عدم صبّ أبو العبر الماء على الختم
تعليمهم قلب الأشياء	ح٢		تعليمهم قلب الأشياء
ذهاب أبو العبر ومجموعة لرجل يعلمهم الهزل	ح١		ذهاب أبو العبر ومجموعة لرجل يعلمهم الهزل
السُّلَّم المثبت			**السُّلَّم المنفي**

شكل (٣-٤) السُّلم الحِجاجي للنموذج الثَّاني قانون النَّفي

من السُّلَّم الحِجاجي السَّابق يظهر لنا أنَّه بدأ بحجة ضعيفة وهي ذهاب أبي العبر لرجل يعلمه الهزل، ثمَّ تدرج السُّلَّم في الحجج من تعليمهم قلب الأشياء أثناء ~~الحديث مع النَّاس~~ إلى أن وصل الأمر إلى إفساد أبي العبر لختم أرزاق الرَّجل، إذ

(٨) الحُصْري، ٩٢.

صبّ عليه الماء بدلًا من التُّراب، وتدرج السُّلَّم إلى الوصول إلى النَّتيجة النِّهائيَّة وهي تفوق التِّلميذ (أبو العبر) على أستاذه (الرَّجل)، وعدم مصاحبتهما لبعض.

النَّموذج الثَّالث:

«قال الجاحظ: وحدثني الحسن بن سهل قال: قال لي المأمون: أيّ كتب العرب أنبل؟ قال قلت المبتدأ؟ قال: لا. قلت: فالتاريخ؟ قال: لا، فسكت، فقال: تفسير القرآن، لأنَّه لا شبه له، وتفسيره لا شبه له. ثمَّ قال: أيّ كتب العجم أنبل؟ فاستعرضتها فقلت: هذا كتاب ذوبان، وقد كتبت بعضه، فقال: ائتني به معجلاً. فوجهت في حمله، فوافاني الرَّسول وقد نهض يريد الصَّلاة. فقال: فلما رآني مقبلاً والكتاب معي انحرف عن القبلة، وأخذ الكتاب وجعل ينظر فيه، فإذا فرغ من باب قال: لا إله إلَّا الله، فلما طال ذلك عليه قعد وجعل يقرأ؛ فقلت: الصَّلاة تفوت وهذا لا يفوت. قال: صدقت غير أنِّي أخاف السَّهو في الصَّلاة لاشتغال قلبي بلذيذ ما في هذا الكتاب، وما أجد للسهو حائلاً غير ذكر الموت... ثمَّ وضع الكتاب. وقام فكبر؛ فلما فرغ من صلاته نظر فيه حتَّى أتى على آخره. ثمَّ قال: أين تمامه؟ قلت: عند ذوبان لم يدفعه إليَّ. فقال: لولا أنَّ العهد حبل أحد طرفيه بيد الله والآخر بأيدينا لأخذته منه، فهذا والله الكلام، لا ما نحن فيه من لي ألسنتنا في فجوات أشداقنا".(٩)

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

(٩) الحُصْري، ١٠٤.

إعجاب المأمون بفصاحة كتاب ذوبان وسلامته اللُّغويَّة	ن		عدم إعجاب المأمون بفصاحة كتاب العجم
مخافة المأمون من السَّهو في الصَّلاة بسبب قراءته للكتاب وعدم انتهائه منه	ح٦		لم يسهُ المأمون في الصَّلاة
انحراف المأمون عن القبلة وقراءته لكتاب ذوبان	ح٥		لم ينحرف المأمون عن القبلة وأدائه للصلاة
إحضار الحسن بن سهل كتاب ذوبان للمأمون	ح٤		لم يحضر الحسن بن سهل كتاب ذوبان للمأمون
سؤال المأمون عن أنبل كتب العجم	ح٣		سؤال المأمون عن أنبل كتب العجم
القرآن الكريم أنبل الكتب لأنَّ ليس له شبيه ولا مثيل	ح٢		القرآن الكريم أنبل الكتب لأنَّ ليس له شبيه ولا مثيل
رغبة المأمون في معرفة أنبل الكتب عند العرب	ح١		رغبة المأمون في معرفة أنبل الكتب عند العرب
السُّلَّم المثبت			**السُّلَّم المنفي**

شكل (٣-٥) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الثَّالث قانون النَّفي

من السُّلَّم الحِجاجي يتضح لنا البدء بحجة ضعيفة، وهي رغبة المأمون في معرفة أنبل الكتب عند العرب والعجم، ثمَّ تطورت الحجج حتَّى خرجت بنتيجة ضمنيَّة، وهي إعجاب المأمون بفصاحة ذوبان العجمي في الكتابة وسلامة محتواه اللُّغوي.

النَّموذج الرَّابع:

«ومرَّ عثمان بن حفص الثَّقفي بأبي نواس وقد خرج من علة وهو مصفر الوجه، وكان عثمان أقبح النَّاس وجهًا. فقال له عثمان: ما لي أراك مصفرًا؟ فقال أبو نواس: رأيتك فذكرت ذنوبي. قال: وما ذكر ذنوبك عند رؤيتي؟ فقال: خفت أن يعاقبني الله فيمسخني قردًا مثلك».(١٠)

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة ضمنيَّة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

(١٠) الحُصْري، ١٦٩.

السُّلَّم المنفي			السُّلَّم المثبت
عدم استهزاء أبي نواس بعثمان	↑	ن	فكاهة أبي نواس واستهزائه بعثمان
لم يتذكر أبو نواس لذنوبه عند رؤية عثمان		ح٤	تذكر أبو نواس لذنوبه عند رؤية عثمان
لم يسأل عثمان عن اصفرار وجه أبي نواس		ح٣	سؤال عثمان عن اصفرار وجه أبي نواس
شفاء أبي نواس من علَّة ألمت به		ح٢	شفاء أبي نواس من علَّة ألمت به
لم يمر عثمان الثَّقفي بأبي نواس		ح١	مرور عثمان الثَّقفي (وكان قبيح الوجه) بأبي نواس

شكل (٣-٦) السُّلم الحِجاجي للنموذج الرَّابع قانون النَّفي

من الشَّكل الحِجاجي السَّابق يتضح لنا البدء بحجة ضعيفة، وهي مرور عثمان الثَّقفي بأبي نواس الذَّي كان مريضًا، وتدرج بعد ذلك السُّلَّم بحجج تراتبيَّة من سؤال عثمان عن سبب اصفرار وجه أبي نواس، وتخرج لنا بنتيجة ضمنيَّة وهي استهزاء أبي نواس من عثمان الثَّقفي وقبح منظره.

ممَّا سبق نستطيع القول إنَّ قانون النَّفي زاخر عند الحصْري في (جمع جواهره)، إذ يبدل الحجج المنفيَّة بحجج مثبتة، وينتج عنها نتيجة مضادة، وتكون هذه النَّتيجة أقوى في إقناع المتلقي بالحجج.

٢-١-٢ قانون القلب.

نتيجة معينة، فإنَّ نقيض الحجَّة الثَّانية أقوى من نقيض الحجَّة الأولى في التَّدليل على النَّتيجة المضادَّة».(١١) ومثاله:

النَّتيجة المضادَّة (لا-ن)		نتيجة (ن)
لم يحصل الطَّالب على درجة الدَّكتوراه	↑	حصل الطَّالب على درجة الماجستير
بل لم يحصل على الماجستير		وحتَّى الدَّكتوراه

شكل (٣-٧) السُّلَّم الحِجاجي لمثال قانون القلب

(١١) العزاوي، ٢٢.

فحصول الطَّالب على درجة الدَّكتوراه أقوى دليل في مكانته العلميَّة من حصوله على الماجستير، وبالمقابل عدم حصوله على الماجستير أقوى من نظيرتها.

وقد برز هذا القانون في مؤلَّف (جَمْعُ الجَواهِرِ في المُلَحِ والنَّوادِرِ) من خلال النَّماذج الآتية:

النَّموذج الأوَّل:

«خرج بعض ملوك الفرس متنزهًا، فلقيه بعض الحكماء فسأله عن أحزم الملوك؟ فقال: من ملك جده وهزله، وقهر لبه هواه، وأعرب لسانه عن ضميره، ولم يختدعه رضاه عن سخطه، ولا غضبه عن صدقه. فقال الملك: لا، بل أحزم الملوك من إذا جاع أكل، وإذا عطش شرب، وإذا تعب استراح. فقال له: أيُّها الملك؛ قد أجدت الفطنة، أهذا لك علم مستفاد أم غريزي؟ قال: كان لي معلم من حكماء الهند، وكان هذا نقش خاتمه. قال: فهل علمك غير هذا؟ قال: ومن أين يوجد هذا عند رجل واحد. ثمَّ قال الملك: علمني من حكمتك أيُّها الحكيم. قال: نعم! احفظ عني ثلاث كلمات؛ قال: صدقت، فهات، قال: صقلك لسيف ليس له جوهر من طبعه خطأ، وبذرك الحب في الأرض السَّبخة ترجو نباته جهل، وحملك الصَّعب السَّير على الرِّياضة عناء».[١٢]

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة ضمنيَّة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

(١٢) الحُصْري، ٩٧-٩٨.

السُّلَّم المنفي				السُّلَّم المثبت
عدم حرص الملك على الحزم في ملكه مع غياب فطنته	لا-ن	↑	ن	حرص الملك على الحزم في ملكه مع فطنته
لم يعلم الحكيم للملك حكمة	ح٧		ح٧	تعليم الحكيم للملك حكمة
لم يذكر الملك للحكيم أنَّ هذا الشَّيء تعلَّمه من حكيم هندي	ح٦		ح٦	ذكر الملك للحكيم أنَّ هذا الشَّيء تعلَّمه من حكيم هندي
لم يدهش الحكيم من فطنة الملك	ح٥		ح٥	دهشة الحكيم من فطنة الملك
لم يرد الملك	ح٤		ح٤	رد الملك أنَّ أحزم الملوك الذِّي يأكل عند الجوع، ويشرب عند العطش، ويستريح بعد التَّعب
لم يجب الحكيم	ح٣		ح٣	إجابة الحكيم: أنَّ الملك الحازم الذِّي يملك جدَّه وهزله ويعمل بضميره
لم يسأل الملك	ح٢		ح٢	سؤاله لحكيم: مَن أحزم الملوك ؟
لم يخرج ملك من الفرس للتنزه	ح١		ح١	خروج ملك من الفرس للتنزه

شكل (٣-٨) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الأوَّل قانون القلب

من الشَّكل السَّابق يظهر لنا أنَّ السُّلَّم المثبت نتج عن مقلوب السُّلَّم المنفي، حيث نتج عن قلب النَّتيجة في السُّلَّم المنفي (عدم حرص الملك على الحزم في ملكه مع غياب فطنته) إلى نتيجة مضادَّة (حرص الملك على الحزم في ملكه مع فطنته) قلب للحجج بحيث تصبح الحجة الأقوى في السُّلَّم المنفي (لم يسأل الملك) هي الحجة الأضعف في السُّلَّم المثبت، وتصبح الحجة الأضعف في السُّلَّم المنفي (لم يعلم الحكيم للملك حكمة) هي الحجة الأقوى في السُّلَّم المثبت.

النَّموذج الثَّاني:

«قال الحسن بن سهل: قرأت في هذا الكتاب: ثلاث لا يصلح فسادهن بشيء من الحيل: العداوة بين الأقارب، وتحاسد الأكفاء، والرَّكاكة في العقول. وثلاث لا

يستفسد صلاحهن بنوع من المكر: العبادة في العلماء، والقنوع في المستبصرين، والسَّخاء في ذوي الأخطار. وثلاث لا يشبع منهن: الحياة، والعافية، والمال. وثلاث تبطل مع ثلاث: الشِّدة مع الحيلة، والعجلة مع التَّأني، والإسراف مع القصد. وهذا كما قال الخضر بن علي: رأيت بعدن حجرًا مكتوبًا عليه بالحميرية: يأيُّها الشَّديد؛ احذر الحيلة، ويا أيُّها العجول؛ احذر التَّأني، ويا أيُّها المحارب؛ لا تأمن من التَّفكر في العاقبة، ويا أيُّها الرَّائد موجودًا لا تقطع أملك عن بلوغ مثله. أمَّا قوله للمحارب، فقد قال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: من فكر في العواقب لم يشجع».(١٣)

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة ضمنيَّة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

الاتزان والتَّأني أساس الحياة	ن	↑	لا–ن	عدم الخروج بحكمة
وجود أمور تبطل مع أمور أخرى	ح٥	—	ح٥	لا يوجد أمور تبطل مع أمور أخرى
وجود أمور لا يشبع منها المرء	ح٤		ح٤	لا يوجد أمور لا يشبع منها المرء
وجود أمور يفسد صلاحها بالمكر	ح٣	—	ح٣	لا يوجد أمور يفسد صلاحها بالمكر
وجود أمور لا ينبغي إصلاحها بالحيلة	ح٢	—	ح٢	لا يوجد أمور لا ينبغي إصلاحها بالحيلة
قراءة الحسن بن سهل لبعض الحكم	ح١	—	ح١	لم يقرأ الحسن بن سهل بعضًا من الحكم
السُّلَّم المثبت				**السُّلَّم المنفي**

شكل (٣–٩) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الثَّاني قانون القلب

من الشَّكل السَّابق يظهر لنا أنَّ السُّلَّم المثبت نتج عن مقلوب السُّلَّم المنفي، حيث نتج عن قلب النَّتيجة في السُّلَّم المنفي (عدم الخروج بحكمة) إلى نتيجة مضادَّة (الاتزان والتَّأني أساس الحياة) قلب للحجج بحيث تصبح الحجة الأقوى في السُّلَّم المنفي (لم يقرأ الحسن بن سهل بعضًا من الحكم) هي الحجة الأضعف في السُّلَّم المثبت، وتصبح الحجة الأضعف في السُّلَّم المنفي (لا يوجد أمور يفسد

(١٣) الحُصْري، ١٠٤–١٠٥.

صلاحها بالمكر) هي الحجة الأقوى في السُّلَّم المثبت؛ لأنَّ السُّلَّم عبارة عن حكم سُرِدت بأسلوب عفوي فطري دون تكلُّفٍ أو ترتيبٍ مسبق للأفكار، إذ جُمِعَ فيها تناقض اللَّفظ بالمعنى.

النَّموذج الثَّالث:

«وكان المنصور قد أخذ النَّاس بلباس قلانس طوال، وأن يكتبوا في ظهور ثيابهم: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (البقرة: ١٣٧)، وأن يطيلوا حمائل سيوفهم. فدخل أبو دلامة عليه في ذلك الزِّي، فقال: كيف حالك يا أبا دلامة؟ فقال: ما حال من صار وجهه في وسطه، وسيفه في أسته، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره!! فأمر المنصور بتغيير ذلك الزِّي».[١٤]

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

تغيير المنصور للزي	ن	↑	لا-ن	لم يغير المنصور الزِّي
الزِّي غير مناسب للناس	ح٣		ح٣	الزِّي مناسب للناس
الزِّي طويل ومكتوب في الخلف آية قرآنيَّة	ح٢		ح٢	لم يكتب خلف الزِّي آية قرآنيَّة
إلزام المنصور النَّاس بزي معين	ح١		ح١	لم يلزم المنصور النَّاس بزي معين
السُّلَّم المثبت				**السُّلَّم المنفي**

شكل (٣-١٠) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الثَّالث قانون القلب

من الشَّكل السَّابق يظهر لنا أنَّ السُّلَّم المثبت نتج عن مقلوب السُّلَّم المنفي، حيث نتج عن قلب النَّتيجة في السُّلَّم المنفي (لم يغير المنصور الزِّي) إلى نتيجة مضادَّة (تغيير المنصور للزي) قلب للحجج بحيث تصبح الحجة الأقوى في السُّلَّم المنفي (الزِّي مناسب للناس) هي الحجة الأضعف في السُّلَّم المثبت، وتصبح الحجة الأضعف في السُّلَّم المنفي (لم يكتب خلف الزِّي آية قرآنيَّة) هي الحجة الأقوى في السُّلَّم المثبت.

(١٤) الحُصْري، ١١٥.

النَّموذج الرَّابع:

«أسلم رجل ابنه إلى المعلم وقال له: علمه الهجاء، ولا تشغله بغيره، فطال ترداده إلى المكتب؛ فقال أبوه: تعلمت الهجاء؟ قال: نعم! قال: ما هجاء طير؟ قال: ط أ س ر أأ ح ألا ي أ، قال: ما هجاء سمكة؟ فقال: س م ك أ ه أ خ ح د د، فأرسل إلى المعلم فحضر. فقال له: ويحك! تقدمت إليك أن تعلم هذا الصَّبي الهجاء، وقد سألته عن هجاء طير، فقال كذا وكذا، وسألته عن هجاء سمكة، فقال: كذا وكذا. فقال المعلم: تجيء إلى صبي صغير تهجيه شيئًا يطير في الهواء وشيئًا يغوص في قعر البحر كيف يتهجاه! فقال: هجه أنت. فقال المعلم: أهجي لك حماد؟ قال: هجِّ. فقال: ح م د ك س، فانتهره أبو الولد وانصرف».(١٥)
وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة ضمنيَّة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

المعلم غير متمكن من التَّعليم	ن	↑	لا-ن	المعلم متمكن من التَّعليم
إخفاق المعلم في تعليم الصَّبي الهجاء الصَّحيح	ح٣		ح٣	لم يخفق المعلم في تعليم الصَّبي الهجاء الصَّحيح
غضب الرَّجل من عدم إجادة ابنه للهجاء، واستدعاؤه لمعلمه	ح٢		ح٢	لم يغضب الرَّجل من عدم إجادة ابنه للهجاء، ولم يستدعِ معلمه
إرسال رجل ابنه لمعلم يعلمه الهجاء	ح١		ح١	لم يرسل رجل ابنه لمعلم يعلمه الهجاء
السُّلَّم المثبت				**السُّلَّم المنفي**

شكل (٣-١١) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الرَّابع قانون القلب

من الشَّكل السَّابق يظهر لنا أنَّ السُّلَّم المثبت نتج عن مقلوب السُّلَّم المنفي، حيث نتج عن قلب النَّتيجة في السُّلَّم المنفي (المعلم متمكن من التَّعليم) إلى نتيجة مضادَّة (المعلم غير متمكن من التَّعليم) قلب للحجج بحيث تصبح الحجة الأقوى في السُّلَّم المنفي (لم يرسل رجل ابنه لمعلم يعلمه الهجاء) هي الحجة الأضعف في السُّلَّم المثبت، وتصبح الحجة الأضعف في السُّلَّم المنفي (لم يغضب الرَّجل من عدم إجادة ابنه للهجاء، ولم يستدعِ معلمه) هي الحجة الأقوى في السُّلَّم المثبت.

(١٥) الحُصْري، ٢٣٥.

ممَّا سبق نستطيع القول إنَّ النَّادرة الحصريَّة تزخر بقانون القلب، الذِّي يعمل على قلب الحجج التَّراتبيَّة في السُّلَّم الحِجاجي المثبت ومقلوبه المنفي، وتصبح الحجَّة المضادة أقوى في التَّدليل على النَّتيجة، وبالتالي يقتنع المتلقي بالحجج المطروحة في النَّادرة، ويؤمن بها.

٢-١-٣ قانون الخفض.

ينتج قانون الخفض عن طريق النَّفي اللُّغوي الوصفي، الَّذي يكون مساويًّا لعبارة (moins que)، أيّ «إذا صدق القول في مراتب معينة من السُّلم، فإنَّ نقيضه يصدق في المراتب الَّتي تقع تحتها».[١٦] ومثاله:

الجو ليس باردًا–لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل. وهنا نستبعد احتمال أنَّ الجوَّ بارد، فلم يحضر الأصدقاء للحفل، ثمَّ يؤول القول إلى:

إذا كان الجوُّ ليس باردًا فهو دافئ أو حار– لم يحضر إلا قليل من الأصدقاء للحفل.

وقد وقع قانون الخفض في مؤلَّف (جَمْعُ الجَواهِرِ في المُلَحِ والنَّوادِرِ) من خلال النَّماذج الآتية:

النَّموذج الأوَّل:

قال: «وأهل الشَّام غاية في الجهل والغباوة. ودخل رجل من أهل العراق الشام في أيَّام عبدالملك في حوائج له، فحجب عنه، فدخل في غمار النَّاس، فقال عبدالملك لجلسائه: ما معنى قول الشَّاعر:

إذا ما المواشط باكرنها ... وأتبعن بالظَّفر وحفًا طويلا
تخذن القرون فعقّلنها ... كعقل العسيف غرابيب ميلا

يصف شعر امرأة، والوحف: البشام، والعسيف: الأجير، والغرابيب الشَّديدة السَّواد؛ يريد عناقيد الكرم. وروي عراجين ميلًا فسكتوا عن آخرهم. فقال العراقي لرجل من أهل الشَّام له بزة وهيئة: أرأيتك إن أخبرتك بمعناه وحصل لك الحظ عند أمير المؤمنين أتقربني منه حتَّى أسأله حاجتي؟ قال: لك ذلك. قال: إنَّما يصف البطيخ، فوثب الشَّامي، وقال ذلك، فافتضح وانقلب المجلس ضحكًا. فقال له عبدالملك: من أين لك هذا العلم؟ قال: هذا العراقي ابن اللَّخناء قال لي ذلك. فقال

(١٦) عبدالرَّحمن، ٢٧٧.

عبدالملك: ما أدخلك؟ اذكر حاجتك؟ فذكرها فقضاها له وقال: اخرج من الشَّام لا تفسدها عليَّ بمجاورتك».(١٧)

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة ضمنيَّة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

استغفال الرَّجل العراقي وتهكمه على أهل الشَّام وطلب عبدالملك منه المغادرة	ن	↑
عدم احترام الرجل العراقي للرجل الشَّامي، وإعطائه المعنى الخاطئ للأبيات	ح٤	
عرض عبدالملك على جلسائه أبيات شعريَّة رغبة في معرفة المعنى	ح٣	
قدوم رجل من أهل العراق إلى الشَّام في قضاء حاجة له	ح٢	
جهل أهل الشَّام واتِّصافهم بالغباء	ح١	

شكل (٣-١٢) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الأوَّل قانون الخفض

من السُّلَّم السَّابق يتضح لنا أنَّ النَّصَّ بدأ بحجة ضعيفة لا أساس لها، وهي جهل أهل الشَّام، وتوالت بعد ذلك الحجج بدءًا من قدوم الرَّجل العراقي إلى الشَّام، ورغبته في الدُّخول إلى الحاكم (عبدالملك)؛ لقضاء حاجته، ثمَّ استظرافه عليهم من خلال إعطائه للرجل الشَّامي معنى خاطئًا لبيت من الشِّعر؛ رغبة منه الاستظراف عليهم، والتَّهكم بهم، ثمَّ طلب عبدالملك منه المغادرة حتَّى لا يفسد البلد بسخريته واستهزائه، وحتَّى لا تصبح صفة ملازمة لأهل الشَّام يتداولها العامَّة بعد ذلك.

النَّموذج الثَّاني:

«ودخل إيَّاس بن معاوية بن قرة الشَّام وهو صغير؛ فخاصم شيخًا إلى القاضي وأقبل يصول عليه، فقال القاضي: اسكت يا صبي. فقال: فمن ينطق بحجتي؟ قال: إنَّه شيخ كبير، قال: إنَّ الحقَّ أكبر منه. قال القاضي: ما أراك تقول حقًّا؛ فقال: لا إله إلَّا الله. فركب القاضي من وقته إلى عبدالملك فأخبره فقال: عجل بقضاء حاجته وأخرجه من الشَّام لئلا يفسدها».(١٨)

(١٧) الحُصْري، ، ٩٤.
(١٨) الحُصْري، ٩٦-٩٧.

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة مضمرة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

قضاء حاجة الصَّبي الصَّغير وإخراجه من الشَّام	ن	
ذهاب القاضي إلى عبدالملك وإخباره بقصَّة الصَّبي	ح٦	
الشَّيخ كبير وله هيبة ووقار، والصَّبي صغير ضعيف الحيلة لكنَّه قوي الحُجَّة (الحقّ أكبر من الشَّيخ)	ح٥	
مطالبة الصَّبي الصَّغير بنطق حجته وسماع القاضي له	ح٤	
إسكات القاضي لهذا الصَّبي الصَّغير	ح٣	
تخاصمه مع شيخ وذهابه إلى القاضي	ح٢	
دخول إيَّاس بن معاوية الشَّام، وهو صبي صغير السِّن	ح١	

شكل (٣-١٣) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الثَّاني قانون الخفض

من السُّلَّم الحِجاجي نلحظ أنَّه يحوي حججًا عدَّة تؤدِّي لنتيجة واحدة مضمرة تفهم من سياق النَّصِّ، مفادها أنَّ إيَّاس بن معاوية فطنٌ ولديه ذكاء ودهاء، وأيضًا خوف عبدالملك منه حتَّى لا يفسد الشَّام ويغيِّر حالها.

النَّموذج الثَّالث:

«مزيد المديني، قالت له امرأته يومًا ليس شيء أربح من عمل النَّبيذ، فعملته، فأتاها برجل معه درهم واحد. فقالت له: لا أبيعه إلَّا جملة، فأتى صاحب الشُّرطة فقال له: إنَّ امرأتي عندها نبيذ؛ فوجه الحرس، وقال: كونوا معه، فإن كان في بيته نبيذ فاطرحوه وامرأته في الحبس، وإن لم يكن فيه شيء فردوه إليَّ.

فجاؤوا فدخلوا منزله فوجدوا النَّبيذ. فقال لامرأته: قد جئتك بمن يأخذه جملة، فكسروا جرار النَّبيذ وجلدوهما جميعًا، ومضوا بهما إلى الحبس، فلما حصلا فيه قال لامرأته: وأزيدك فائدة نحن فيه لم تخطر ببالك. قالت: وما هي يا مشؤوم؟ قال: استرحنا من كرى البيت».(١٩)

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

(١٩) الحُصْري، ١٧٩-١٨٠.

ارتياح المديني من دفع إيجار المنزل	ن	
حبس الزَّوجين وجلدهما، وكسر جرار النَّبيذ	ح٦	
مجيء صاحب الشُّرطة لمنزل الزَّوجين	ح٥	
بيع الزَّوجة للنبيذ جملةً	ح٤	
مجيء رجل بدرهم واحد يريد شراء النَّبيذ	ح٣	
اتِّجاه هذه الزَّوجة لعمل النَّبيذ والمتاجرة فيه	ح٢	
رغبة زوجة مزيد المديني في عملٍ يدر عليها مالًا وفيرًا	ح١	

شكل (٣-١٤) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الثَّالث قانون الخفض

من السُّلَّم الحِجاجي نجد أنَّ النَّتيجة النِّهائيَّة هي جلد الزَّوجين وحبسهما في السِّجن نتيجة بيع الزَّوجة للنبيذ، ويؤكِّد إثبات فعلتها استعمال الحصْري الفاء في سرد الأحداث، وأنَّها جاءت تعاقبية تراتبية، كما أنَّ حجة الزَّوجة ضعيفة جدًّا، وهي لجؤها لبيع النَّبيذ جملةً، وهذا أمر ممنوع لكن حجة صاحب الشُّرطة قويَّة؛ لأنَّه وجد جرار النَّبيذ في منزل الزَّوجين.

النَّموذج الرَّابع:

«وحصلت لأبي علقمة النَّحوي علة، فدخل عليه أعين الطَّبيب يعوده. فقال: ما تجده؟ قال: أكلت من لحوم هذه الجوازل، فطسئت طسأة، فأصابني وجع ما بين الوابلة إلى دأية العنق، فما زال يزيد وينمى حتَّى خالط الخلب والشَّراسف، فما ترى؟ قال: خذ خريقًا وسلفقًا وشبرقًا فزهزقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه. فقال: ما تقول؟ فقال: وصفت لي من الدَّاء ما لا أعرف، فوصفت لك من الدَّواء ما لا تعرف. قال: ويحك فما أفهمتني. قال: لعن الله أقلنا إفهامًا لصاحبه».[٢٠]

وورد في هذا النَّص حجج تراتبيَّة تخدم نتيجة واحدة، يمكن إيضاحها بالسُّلَّم الحِجاجي الآتي:

عدم وصف الطَّبيب الدَّواء للمريض	ن	
شرح أبي علقمة للطَّبيب سبب مرضه	ح٣	
مجيء الطَّبيب له	ح٢	
مرض أبي علقمة النَّحوي	ح١	

شكل (٣-١٥) السُّلَّم الحِجاجي للنموذج الرَّابع قانون الخفض

(٢٠) الحُصْري، ١٨٣.

من السُّلَّم الحِجاجي نرى تأثير المفردة في عمليَّة التَّواصل والإفهام، فقد بُني السُّلَّم من حجج صغرى لفهم عمليَّة التَّدرج من الحجج الضَّعيفة إلى الحجج القويَّة وصولًا إلى النَّتيجة، فمرض الرَّجل، ومجيء الطَّبيب له، ووصفه لمرضه وعلته بكلام لا يفهم، وبالتالي مجاراة الطَّبيب له ووصفه دواء لا يفهم، كلّ هذا أدَّى إلى عدم التَّواصل بين الطَّبيب والمريض.

ممَّا سبق نستطيع القول إنَّ النَّادرة الحصريَّة ذات طبيعة حِجاجيَّة، لذا نجدها تزخر بقانون الخفض، الذِّي يهدف إلى إقناع المتلقي بنتيجة معينة تسبقها حجج تراتبيَّة، هذه الحجج تسهم في البناء الحِجاجي للنادرة، وتكون أقوى في الإقناع والإذعان.

وعليه يتضح لنا أنَّ السُّلَّم الحِجاجي في مؤلَّف (جمع الجواهر في المُلح والنَّوادر) يبدأ بحجة ضعيفة، ثمَّ يتدرج بطريقة تراتبيَّة في سرد الحجج الواحدة تلو الأخرى؛ حتَّى يصل إلى أقوى الحجج، التِّي جميعها تخدم نتيجة واحدة إمَّا تكون صريحة أو ضمنيَّة؛ لأنَّ الحصري يهدف إلى تعزيز روح النَّادرة عند قراءة المتلقي لها واستمتاعه بها، لذا يحشد كلّ الحجج حتَّى يروج للتسلية والمتعة، ويدفع الملل والضَّجر عن المتلقي من خلال مزجه بين الجدِّ والهزل والانتقال بينهما.

قائمة المراجع:

- الحُصْري، أبو إسحاق (١٤٣٩هـ-٢٠١٨م) جمع الجواهر في المُلح والنَّوادر، تحقيق: محمَّد العزازي، ط١، بيروت- لبنان: دار الكتب العلميَّة.
- عبدالرَّحمن، طه (١٩٩٨م) اللِّسان والميزان أو التَّكوثر العقلي، ط١، الدَّار البيضاء: المركز الثَّقافيّ العربيّ.
- العزاوي، أبو بكر (١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م) اللُّغة والحِجاج، ط١، الدَّار البيضاء: د.ن.
- الكناني، ممدوح (١٩٩٠م) الأسس النَّفسيَّة للابتكار، ط١، الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتَّوزيع.